4- الصوت

رنيم محمد

كعادتي استيقظت من نومي وبداخل رأسي نفس الفكرة التي تراودني منذ عدة أشهر لكنني أخشى أن أذهب لكن هذا الخوف ليس أكثر من خوفي أن أبقى هنا، أبقى ولا أفعل شيئا فإن كان لدى أي شخص سبب لفعل شيء، إذن فما السبب لدى لعدم فعل أي شيء؟؟

لكن هذه المرة كان الأمر مختلفا فاليوم أنا ذاهبة وبلا تراجع عن هذا.. ترددت كثيرا وأنا في طريقي للذهاب لكني على أية حال أنا من اتخذ القرار، وعليَ تحمل مسئولية هذا.. وها أنا الآن هنا أجلس في هدوء لانتظر دوري من بين القليل من الأشخاص.

"اتفضلي يا أستاذة سلا دكتورة مارفي بانتظارك"

قطع ذلك الصوت تفكيري،، فوجهت أنظاري إلى مساعدة الطبيبة وتصنعت الابتسامة، نظرت إلى الباب وتخيلت مشهدا كاملًا أرى فيه نفسي وأنا اركض لأخرج من كل هذا كما كنت أفعل عندما كنت صغيرة فأنا أكره جميع الأطباء ولكن هذا لم يحدث فأنا لم أعد صغيرة اليوم.. والآن لقد حان دورك يا عزيزتي فعليكِ الذهاب لمواجهة نفسك بالداخل، ولجت إلى غرفة الكشف لتلاقيني تلك الطبيبة التي صُدمت من صِغر عُمرها ولكن في نفس الوقت أعطاني ذلك بعضا من الأريحية.. لتبدأ هي بالحديث وهي تصافحني وتشير لي بالجلوس قائلة:-

- مرحبا.. أنا الطبية مارفي ماذا تحبين أن أنادينك؟

- سلا

حسنا سلا.. ما هي مشكلتك؟

نظرت إليها ولقد فقدت كل شيء في رأسي لأقوله فما الذي أتى بي إلى هنا!! أنا لا أعلم ما الذي أريد المساعدة به.. ماذا أقول؟؟، هل أقول لها أن تمنع أحلامي السخيفة من الظهور مرة ثانية؟ أم أقول لها أن تعطيني بعض الحبوب لتمنعني من النوم لأتخلص من هذا الصوت اللعين؟ ثم قطع كل هذا التفكير صوت مارفي وهي تبتسم قائلة:-

- لا داعي لكل هذا القلق فقط تكلمي عن أي شيء تريدينه فأنا مستمعة جيدة

- حقا لا أعلم ما الذي عليَ قوله لكنني أصبحت سجينة ساعات نومي القليلة من الليل فصوت أحلامي يلاحقني في كل مكان.. فهو يريد قتلى.. يريد هلاكي بالكامل!، والأدهى أنه دائما ما يتعمد ألا يراني ففي كل ليلة يحاول إثبات حقيقة عدم وجودي.. لا.. لا هذا ليس بحقيقة أنني موجودة.. أنت تلاحظين وجودي.. صحيح؟؟

- اهدأي ياسلا.. أنتِ هنا.. أنني أراكِ اطمئني.. هل تشرحي لي أكثر عن الأمر.. ماذا ترين في هذه الأحلام؟

- يمر هذا كل ليلة أمام عيني كفيلم قصير فأرى نفسي في كوخ كبير شديد الظلام لا يوجد له لأية أبواب وكأنه صنع ليظل مغلقا للأبد ثم اسمع صوت يردد في قوة لم أر مثلها في حياتي "لا يوجد سبيل اليوم لخروجك ياسلا" ومن بعد ذلك يبدأ الكوخ يضيق أكثر فاكثر ثم يتلاشى كل شيء حتى وجودي لم يعد وكأنني سراب في سراب..

أنهيتُ سردي لحلمي المُزعج وأنا أنظر لها متوسلة أن توقف هذا، فتحدثت قائلة:-

- وماذا أيضا؟

- كنت أرى نفسي واقفة بداخل غرفة مليئة بالعديد من المرايا لكنني لم أر انعكاس جسدي بأي واحدة فكنت التف حولي في جنون وضياع أملا

في أن أرى نفسي.. لكنني وكأني لم أكن ثم يبدأ إحساسي بنفسي ينعدم فلم أعد أشعر بوجودي على الإطلاق فأنا لست هنا في أي مكان.

نظرت إلي مارفي بعد أن لاحظت توتري الزائد فقد كنت ارتجف بشدة وكادت دموعي أن تتساقط بلا توقف.. ثم قالت

- إذا لا تريدين التحدث أكثر عن هذا فلا بأس.

نظرت إليها بعد أن أخذت نفسا طويلا:

- لعلها تكون نجدتي فهذا يومي الذي لطالما انتظرت مجيئه وها قد جاء.

- حسنا.. لنكمل حديثنا.. ماذا تشعرين حينما تواجهين هذه الأحلام ليلا بمفردك؟؟

- أشعر أنني غير قادرة على مواجهه هذا.. لا أستطيع تقبل عدم وجودي وأنا حية.. فبموتك تعلمي أنه قد انتهى كل شيء ولكن الآن ينتهي كل شيء أنا ما زلت أحيا.

- وماذا تشعرين تجاه هذا الصوت الذي يتردد كثيرا في أحلامك؟

عقدت حاجبيَ عندما ذكرتني بذلك الصوت وكأنني أخشاه قبل أن أُجيب:-

- لا أستطيع تحمل سماعه فأنا أكرهه كثيرا.. كلما تحدث أشعر أن صوته يلتف حول عنقي فأنا اختنق الآن لا مفر.

- وهل يأتي في يومك أم فقط في أحلامك؟

- فقط ليلا فهو جبان لا يأتي سوى في الظلام.. إن الظلام يخيفني كثيرا لا تسمعين به سوى سماع صوت أنفاسك المضطربة لتزيدك خوفا وظلمة.

- ومن ماذا تخافين أيضا؟؟

نظرت إليها وأنا ابتلع ريقي بصعوبة قبل أن أقول:-

- أخاف من ليل ظالم لا يوجد به سوانا.

- حسنا.. أتتذكري أول يوم.. ماذا فعل وماذا قال لكي؟؟

نعم أتذكر هذا جيدا.. قبل عدة أشهر من الآن عدت إلى البيت بعد يوم طويل مع أصدقائي وقد غفوت دون شعور مني.. فرأيت نفسي بمكان فارغ ليس به شخص والظلام بكل مكان هناك فقد كنت ارتجف من شده خوفي وسمعت صوتا لم أسمع مثل قسوته في حياتي قط كان يهمس في ثبات وسخرية:-

" سلاا.. سلاا.. اتسمعيني! هيا يا عديمة الفائدة"

- من أنت؟

- لا يهم.. فالأهم أنكِ هنا الآن.

- وأين أنا؟

- أحقا! تريدين أن تعرفي؟ لماذا تهتمي الآن وأنتِ لم تهتمي بأي شيء في حياتك.. اومئي برأسك مع ابتسامة صغيرة وقولي نعم كعادتك.. فهمتي يا عديمة الفائدة؟!

انتهيت من سرد كابوسي الأول ثم تناولت في يدي كوب الماء الذي قدمته لي مارفي ورشفت منه القليل.. ثم أكملت قائلة:-

- بعد هذا استيقظت من نومي بعد ذلك ولم أكن اهتم بالأمر فقدت ظننت أنه ليس سوى حلم سخيف لشدة إرهاقي وعدت للنوم مرة ثانية.. ولكن هذا لم يحدث فالأمر ظل يتكرر مرارا حتى أصبحت زيارته لي دائمة كل يوم، وأخذت حياتي من بعد ذلك تنتهي أمام عيني فابتعدت عن جميع من حولي، أصبحت أخاف من كل شيء حتى سريري كنت أتفادى الاقتراب منه.. أنني مدمرة بالكامل لم أعد احتمل كل هذا لم أعد..

نظرت إلى مارفي وهي تبتسم لتبث بداخلي الراحة ثم قالت:

- أريد منك أن تطمئني فكل شيء سيصبح على ما يرام.. يكفي هذا لليوم لنكمل مرة ثانية.

وبعد ذلك ذهبت إلى منزلي وبيدي ورقة صغيرة بها العديد من المهدئات والحبوب العلاجية عديمة النفع ووقفت قليلا انظر في تردد إلى غرفتي أخشى الاقتراب فأنا لا أريد النوم.. لا أريد أن أرى ما ينتظرني بعد نومي لا أريد مقابلته.. لا أريد.. جلست أشاهد التلفاز وبجانبي زجاجة من القهوة فقد انتهى الأمر لا نوم بعد الآن فهذا في نظري ملاذي الوحيد من الهلاك وبعد أيام من هذه الحرب ومحاولة تجاوز هذه الفِطرة كانت عيني من شدة إرهاقها تغفل مرات عديدة لبضع ثوان دون أمر مني لذلك ثم استيقظ مفزوعة لهذا وفي نهاية الأمر لقد فشلت مجددا في أن أهلكني جسدي وهزمني النوم.. فبأية حال مقابلته حتما ستحدث.

ماذا يحدث هنا؟! لم كل هذا؟ لماذا تبكون.. أنا هنا لم أمت بعد.. لماذا لا أحد يجاوبني؟.. انظروا فأنا ما زلت أتنفس!!

- عن أي تنفس تتحدثي ياسلا؟؟ انظري لا وجود لكِ اليوم.. أنكِ ميتة بالفعل..

هكذا جاءني ذلك الصوت الغليظ ثم أعقب قوله بضحكات مرعبة، لأصرخ فزعاً:-

- لاااااا أنا هناااااااااااااا

ثم قال بصوت حاد وكأن غضب الناس جميعا في صوته:

- كلا لستِ هنا.. هيا انظري ها هو قبرك والناس جميعا من حولك يبكون لفراقك..

أخذت اركض واركض "اسمعوني أنا هنا.. أنا موجودة ما زلت أحيا".. وصوته يلاحقني في كل مكان "لا مجال لوجودك اليوم".. "أنتِ لست هنا يا سلا.. أنت لست هنا يا سلا!".

لا أري سبيلا لنجدتي فصوته يحاصرني.. أين أذهب لقد انتهيت

ثم استيقظت من نومي وأنا أصرخ أهذا هو ما تريده.. أتريد موتى ستتركني حينها.. أجيبني!!؟ كفاااا فلتصمت.. اليوم أعلن فوزك سيدي فأنا أسيرتك المقيدة بسلاسل خوفها.

يبدو أن هذه الحياة لا يوجد بها أي مكان للراحة فيجب عليَ البحث بنفسي عن أي مكان لأرتاح فيه ثم نظرت عيناي إلى شرفة غرفتي التي لطالما بدأت بها كل قصة في حياتي واليوم على إنهاء القصة بها أيضا فذهبت لداخلها وأمسكت بأسوارها الحديدية.. ولكن لحظة انتظر أنني أقل شجاعة بكثير لفعل هذا.

جلست أبكي بصوت مسموع وأنا أنظر إلى السماء أهذه الحياة التي خلقتني لأجلها.. أهذا كل شيء.. إلى متى.. لا أعلم أين أنت؟؟ .. انجدني يا الله انجدني.

ثم أخذت تمر الأسابيع من بعد ذلك بلا جدوى فلم أعد أشعر بأية راحة سوى في ساعات زياراتي القليلة لمارفي فأنا أحب الحديث معها تشعرني أنني بخير وأن لوجودي رؤية واضحة.. ولكنني مع ذلك قد قررت عدم الذهاب إليها مرة ثانية فقد كانت شديدة القسوة معي في زياراتي الأخيرة لهاا!!

ومن بعد هذا قد استسلمتُ للأمر تماما.. لم أعد أريد معرفة شيء فليحدث ما سيحدث فلا أعد أهتم.. أصبحت لا أخشاه لقد اعتدت عليه في نهاية الأمر.. بل أنني أصبحت انتظره كل يوم..

- ألا تريدين أن تعرفي من أكون ياسلا؟؟

- لا لم أعد أهتم لذلك.

- ولكن اليوم عليكِ معرفتي.. أتذهبي معي؟

- حسنا.

ذهبت خلف ذلك الصوت حتى وصل بي عند مرآة قبل أن يقول:-

- هيا انظري ها أنا هنا.

ما هذاأانها مجرد مرآة!!

- لا انظري جيدا.. أنني هناك بداخلها

- لا أرى سوى نفسي بداخلها.. لا وجود لك

عادت ضحكاته التي كنت أكرهها، قبل أن يقول:-

- حسنا.. وهذا كل الأمر

- لست سوى صرختك التي اعتدتِ كتمانها يا سلا..

ثم استيقظت وفي رأسي الحديث الذي دار بيني وبين مارفى آخر ليلة فعادت ذاكرتي إلى الخلف مستعرضة ذلك الحوار:-

مارفى: أتري أن هذا الصوت هو المشكلة يا سلا في الحقيقة؟!

- نعم هذا صحيح.. فإذا زال فسأكون بخير وسأصبح سعيدة..

- لكنني لا أري هذا

- ماذا تقصدين!!

- أنتِ بخير يا سلا.. ماذا بك؟

- أنتِ تعلمين.. هذا الصوت يريد فهو يريد قتلي يريد أن..

قاطعت جملتي لتسأل وقد تغيرت نظراتها إلى القسوة قائلة:-

- حسنا.. وماذا في هذا يا سلا!؟ إذا كان يريد قتلك لمَ لا تواجهيه لمَ كل هذا الخوف أنه مجرد صوت ضعيف غير قادر على الظهور أمامك.. لا أحد يستطيع هلاكك يا سلا ما لم تسمحي له بذلك أولا..

- لكنني غير قادرة على المواجهة.. أريد المساعدة كيف أتخلص منه..

- حسنا.. فهذا اختيارك بأن لا تختاري شيئا .. أنتِ وحدك من يستطيع فعل هذا.. أنتِ من تقف أمامك يا سلا!!

أنت فقط من يريد هلاكك.

ابتسمتُ بعدما تذكرت حديثها الذي ختمته قائلة:-

فأحيانا تكمن المشكلة بأنه لا يوجد أية مشكلة على الإطلاق.

***

احذر وحاول كتمان أنفاسك قدر المُستطاع، فهي تراقبك الآن.. تلك العجوز ذات الشعر الأشيب.. تشاهد اتساع حدقتي عينيك وتبتسم وتزحف بجسدها ذي الأرجل المقطوعة، تحفر بمخالبها في الأرض.. إنها قادمة.. فقد حان الوقت لرد (الدَين).

أتظنها ترهات؟!.. إلا تعلم أن النفس البشرية أشد ظُلمة ورعبًا من عالم الماورائيات؟!

على أي حال، قد حذرتك.. فإن أفلت من هذه العجوز فلا فرار من تلك الطفلة ذات الحرق بذراعها الأيسر.. ستأتي إليك لتروي لك وتريك ما (حدث في العاشرة ونصف)